الحوار في القرآن والسنة وموقف الإسلام من غير المسلمين

عيسى عبد الله علي كاهوني*

المقدمة:

تعيش الأمة الإسلامية حالة عصيبة من الزمن، اختلط فيها الواقع بالخيال، الأمل باليأس، ومع تفرق أبناء الأمة ظهرت الحاجة للتقريب بين المسلمين، فضلا عن ضرورة الوحدة، ولكن هذا الأمر لا يحدث إلا بعد تحديد المشكلة، من أجل تحديد كيفية مواجهة تلك المشكلة، وفي عصر تداخلت فيه المشاكل الدولية بالمشاكل الداخلية، فيجب على المسلمين العودة إلى جذورهم الدينية الحقيقية، وتحديد الخطر الأكبر الذي يوجههم.

إن أخطر ما يواجهه المسلمون هو وجود جماعة تنشر الإرهاب في ربوع العالم ثم تنسب نفسها للإسلام، فشوهت الإسلام والمسلمين، ثم حدث ما سُمي في الغرب الأوروبي"الإسلاموفوبيا"[١]، أو الخوف من الإسلام، وهي حالة من الهلع من أي مسلم، من أي اسم فيه محمد وأحمد وعلي ومصطفى وعبد الله وعائشة وفاطمة وغيرها من الأسماء الإسلامية، وهو الأمر الذي لا يجب السكوت عليه، بل يجب مواجهة الأمر بالحكمة والعقل والتقارب بين المسلمين، والحوار فيما بينهم قبل الحوار مع غير المسلمين، وهذا يستلزم من المسلمين العودة لأصولها القرآنية الربانية، والعمل على تطبيقها في أرض الواقع.

---

* أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، قطر.

١- مصطلح يعني الخوف من الإسلام، لأن كلمة فوبيا تعني الخوف المسيطر على الإنسان بسبب موقف أو شيء معين، وشاع المصطلح، حتى أصبح الخوف من المسلمين أمرا مفروغا منه في العالم الغربي.

لابد أن يبدأ المسلمون الحوار فيما بينهم الآن دون تأخير، والعودة للميراث الإسلامي التسامحي الشامل لكل مناحي الحياة، فالله يطلب الاعتصام، فلابد من الاعتصام، لقد جاء الإسلام بالتوحيد والعدل، فقال تعالى في سورة الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[٢]، والميزان رمز للعدل، ولا يكون العدل موجودا دون أن تكون إرادة الإنسان حرة مستقلة، والعدل يشمل الجميع ليبدأ الحوار، والحضارة الإسلامية هي أم الحضارة المعاصرة، أخذ الغرب منها ثم بنى عليها، وحاولوا تشويه الإسلام، على أنه وبالرغم من الحملات الفكرية التي تشن في الفترة الأخيرة على التراث الإسلامي ومحاولة منح إيحاءات سوداوية بخصوصه عبر التركيز على نقاطه السلبية والتغاضي عن نظيرتها الإيجابية، وهي محاولة لا تبدو بريئة على الإطلاق، حيث تسعى لفصل شعوب الشرق عن تراثها الأقرب.

من المؤكد أن مثل هذه الحضارة الإسلامية الضخمة لم تكن لتتمكن من التوسع والاستقرار كل هذه الفترات التاريخية دون الاعتماد على الحوار مع النفس والآخر، والذي مثل في الكثير من المناطق الإسلامية الأكثرية الجماهيرية، كما أن سقوط الحضارة الإسلامية في فترات التأخر التي عاشتها، هو ما أدى لتجاوز المسلمين على مسلماتهم الحضارية التي مثلت أهم أسباب تفوقهم مما أدى لحالة التراجع والتشوه الحضاري الذي تعاني منه معظم دولهم .

القرآن يطلبنا بالحوار، وعندما نعود للسيرة النبوية نجد أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم تعامل مع المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، ولم يؤثر عنه أبدا عليه السلام أنه دخل من تلقاء نفسه في عداء مع أحد، أو قام بالحرب، فالحروب النبوية كانت في الأصل حروبا دفاعية.

ولقد أدهش النبي عليه الصلاة والسلام العالم كله في تعامله مع أعدائه وهو قادر عليهم، فلم يظهر في التاريخ أرحم منه مع أعدائه رغم ما كان يلاقيه منهم من الأذى، إلا أنه كان مثالا للأخلاق الحسنة متمثلا لشعار العفو عند المقدرة، فالأخلاق الحسنة ميراث الصالحين والمؤمنين (إنما مكارم الأخلاق ميراث المؤمن)[٣]. ورسول الله ماسك بلجامها متمسك بها داعٍ إليها ومتممٌ لها "إنما بعثت لأتمم مكارم

٢- سورة الحديد، الآية: ٢٥.

٣- أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود** (بيروت :المكتبة العصرية ،٢٠١٠م) ج١، ص١٣٧، و ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق مجموعة محققين(القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ) ج٥، ص٦١، وابن حجر العسقلاني، **موافقة**

الأخلاق"[٤]، ويقول تعالى عن أخلاقه النبوية الكريمة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٦].

والرسول القدوة كان يحاور كل الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، إذن لا يمثل الحوار مع الآخر مجرد خيار اضطراري يفرضه الواقع الجغرافي أو الاجتماعي أو حتى السياسي، وإنما هو الخيار الأفضل الذي اعتمد عليه الإسلام كعقيدة منذ بدايته المكية ومروراً بالمرحلة المدنية وحتى خلال المراحل التاريخية اللاحقة سواء عبر السلطة السياسية القائمة، أموية أو عباسية، والعلماء المسلمون الذين عاصروا هذه المراحل .

لقد كان خيار الحوار هو الأكثر قرباً من المشروع الإسلامي والذي سعى النبي صلى الله عليه وسلم من خلاله للثورة على المجتمع القبلي والعشائري، وكان طرح الحوار مع الآخر الديني والذي كان يتضمن كذلك في بعض الأحيان الآخر السياسي والعشائري، الوسيلة البديلة للصراعات القائمة على العصبيات .

وقد تضمن القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم الكثير من سلوكيات وأساليب الحوار مع الآخر الديني كالمسيحيين واليهود وحتى الوثنيين، وشملت في بعض الأحيان المديح لهذا الآخر، بل أن هذه الحوارات شملت كذلك تفاهمات بين الخلفاء الأمويين والعباسيين وبين أبناء الأديان والمذاهب الفكرية المخالفة والذين كانوا يعيشون تحت حماية الدولة.

في هذه الدراسة نكتب عن الحوار القرآني وما مثلته السيرة النبوية الشريفة، وكيفية تعامل الإسلام مع غير المسلمين.

وذلك في ثلاثة محاور وخاتمة.

الخبر، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي(الرياض: مكتبة الراشد، ١٤١٩هـ) ط٣، ج١، ص١٩٧.

٤- رواه البخاري في **الأدب المفرد**، تحقيق كمال يوسف حوت، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م) بلفظ: صالح الأخلاق ، وأحمد في **مسنده** (القاهرة: عيسى الحلبي، المطبعة الميمنية، ١٣١٣ هـ ، ج ٢، ص٣٨١ ـ تصوير المكتب الإسلامي بيروت – دمشق ، وابن أبي شيبة في **مصنفه**، تحقيق عبدالخالق الافغاني (دائرة المعارف بالهند، بدون تاريخ) ج١١، ص٥٠٠.

٥- سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

٦- سورة القلم، الآية : ٤.

المحور الأول:

الحوار في القرآن الكريم:

الحوار في الإسلام يقترب من الفرائض، لأن القرآن الكريم يريد التقارب بين البشر بصورة عامة، ولا يكون التقارب إلا بالحوار الحسن، ولذلك يتطلب تبنى الحوار داخل الجماعة الإسلامية بكل أطيافها السياسية والمذهبية ، وهذه ليست دعوة للتقريب بين المذاهب، وإن كنّا في حاجة إليها، ولكن الحوار يجب أن يقوم على فلسفة واضحة تنطلق من النواة الأولى، أي الحوار داخل الجماعة الواحدة، ومن السذاجة أن تنطلق للحوار مع الآخر ونحن نعجز عن الحوار مع ذاتنا، علماً بأن القرآن الكريم هو في حد ذاته كتاب حوار، والحوار في القرآن يمثل نقل عناصر الفكر الإنساني بكل خصائصه الثقافية والشعورية للإنسان الآخر الذي يقوم بالدور نفسه بالنسبة لهذا الشخص .

إن الحوار الأول في القرآن الكريم كان حواراً بين الله والملائكة عندما قال لهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٧)، وحاوروا ذاته العليا بقولهم باستنكار ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾(٨)، وانتهى الحوار باقتناعهم عندما أخبرهم آدم عليه السلام بالأسماء كلها وقالت الملائكة ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾(٩).

أما الحوار الثاني في كتاب الله، فكان بينه سبحانه وتعالى وبين إبليس، فإبليس رفض السجود لآدم، لكنه لم يرفض فرصة الحوار مع الله سبحانه(١٠)، وعبر إبليس عما في نفسه، وقدم طلبه إلى الله بعد أن رفضه سبحانه وتعالى، ثم بعد أن قبل طلبه عبّر عن خطته ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(١١)، وأجابه سبحانه بعد ذلك ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾(١٢) ، وهذا الحوار بين

٧- سورة البقرة، الآية: ٣٠.

٨- سورة البقرة، الآية: ٣٠.

٩- سورة البقرة، الآية: ٣٢.

١٠- السيد محمد حسين فضل الله، **مستقبل الحوار الإسلامي** (بيروت :الإسلامي – كتاب الكلمة – منتدى الكلمة – ٢٠٠٤م) ص ٩ وما بعدها .

١١- سورة الأعراف، الآية: ١٦.

الله سبحانه وتعالى رب الكون وبين إبليس يعطينا فكرة أن المخلوق حتى لو كان متمرداً فإنه لا يفقد فرصة الحوار مع خالقه، ومن ثم ليس هناك شخص مرفوض في الحوار، وبالإمكان محاورة أي إنسان مهما كانت درجة سقوطه الإنساني والديني والاجتماعي .

وجاءت الحوارات كثيرة ومتنوعة في القرآن العظيم، بين إبليس وآدم، والقرآن الكريم دخل فى حوارات متعددة مع المؤمنين والكافرين والشاكين والمنافقين، ثم حوارات بين هذه الطوائف المختلفة، بحيث يمكن القول إن الحوار هو الوسيلة لتأكيد المعرفة وتحريك الواقع، وطلب القرآن الكريم أن يدخل الإنسان في حوار مع نفسه.

وقد وضع الله في قرآنه الكريم قواعد ثقافية ومعرفية للحوار يجب أن يأخذ بها المتحاور في قوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١٣]، فأراد الله للإنسان أن يملك المحاور المعرفة فيما يحاور فيه، وأراد للحوار أن ينطلق من خلال أصول موضوعية تحترم إنسانية الإنسان المحاور سواء في قيام الدعوة أو في مقام الخصام والجدال، ولعل قمة المنهج القرآني الموضوعي ما جاء في قوله تعالى ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[١٤]، فالقرآن جرد الحوار من ذاتية المتحاور، وجعل المتحاورين لا يتبنيان شيئاً حتى لو كانا ملتزمين في العمق التزاماً حاسماً حول هذا الموضوع، حيث يعتبر أن هناك حقيقة، وأن هناك شكاً مشتركاً وأن الطرفين يريدان أن يحركا الشك في طريق اليقين حتى يلتقيا بالحقيقة، ويعتبر هذا الأسلوب منهج قرآني في الحوار الذي يجعل فكراً يحاور فكراً، لا ذاتاً تحاور ذاتاً، فالحوار يضيء للإنسان مواطن الحقيقة[١٥]، ويجعل الإنسان يكتشف الآخر دون اللجوء للإكراه فضلاً عن القتل العقائدي الذي مورس كثيراً في الدولة الإسلامية، إما تحت دعاوى الزندقة أو الخروج من الملة أو مفارقة الجماعة وجميعها سياسية غطت برداء الدين كثيراً، صحيح كانت هناك محاولات كثيرة جابه العلماء فيها الخلفاء، ولكنها ظلت

١٢- سورة الحجر، الآية: ٤٢.

١٣- سورة آل عمران، الآية: ٦٦.

١٤- سورة سبأ، الآية: ٢٤.

١٥- محمد حسين ، **مستقبل الحوار الإسلامي**، ص ١٢ .

مواجهات فردية للعلماء لم تأخذ صفة الجماعة، هذا باستثناء الحركات السياسية التي تقوض دولة لتنشئ دولة، وهذه أيضاً لها فتاوى كثيرة متنوعة حسب موقع السلطة المنتصرة ، وأغلبها جاءت غير قرآنية المصدر على الإطلاق، ولكن المشكلة أن جميعها صارت من ضمن أسس الحوار التراثي والذي اعتبره المسلمون فيما بعد من الدين بالضرورة، وليس فيه من الضرورة شيء، ولسنا بصدد الدخول في التاريخ لكل فترات التاريخ الإسلامي؛ ولكنا نريد إيضاح الحقيقة كما جاءت في القرآن العظيم على لسان النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ونورد هنا حوارا حدث بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين المشركين، صاغه القرآن الكريم بصورة معجزة، قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[١٦]، وهو حوار رائع، المشركون يطلبون طلبا يريدون من ورائه إعجاز النبي، يطلبون منه الينبوع من الأرض الصحراوية، وطلبوا نزول الملائكة ، وطلبوا كتابا يروه نازلا من السماء، ولم يكن رد النبي عليهم سوى سبحان ربي، ما أنا إلا بشرا رسولا، وفي هذا الحوار القصير يمكن التنبؤ بكل الحوارات الأخرى في القرآن الكريم، وهي كثيرة متنوعة متعددة لا يشملها بحث واحد، بل تحتاج لكتب كثيرة ترصد الرسالة السماوية الأخيرة من الله للإنسان، والتي تطلب منه أن يسير على نهجها الحواري.

إن الإنسان في تصور القرآن مخلوق أرضي حقاً، ولكنه بحكم تكوينه ووظيفته موصول بالسماء[١٧]، وبهذه الصفة يجب أن يقدم له خطاب ديني متحرر من أي قيود غير قرآنية كما رأيناها آنفاً في الحوار القرآني، علماً بأن هذا الحوار السماوي يتعلق بالأرض والإنسان المستخلف.

ولماذا نذهب بعيداً، إن أول ما نزل في القرآن الكريم ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ

١٦- سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ – ٩٣.

١٧- فهمي هويدى ،**حق الناس هو حق الله**، مقال منشور في مجلة العربي الكويتية – العدد ٢٩٧ – أغسطس ١٩٨٣م.

ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[١٨]، فالقراءة والقلم هما عنوان المعرفة البشرية السماوية المصدر، ولا تكون القراءة إلا مع القلم أو ما دوّن بين دفتين، ولذلك فإن ثاني ما نزل من القرآن الكريم ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾[١٩].

من جديد يؤكد الله سبحانه أهمية القلم في تدوين العلم والمعرفة والثقافة، وهكذا يتسق مع قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢٠]، لأنه سبحانه لم يترك القرآن لذاكرة البشر، فكان تدوين القرآن لحظة نزوله على الحجر وسعف النخيل من أسباب حفظ القرآن، وهو ما لم يحدث للكتب السابقة التي لم تدون في حينها فضاع كثير من معالمها، والخطاب الديني التراثي لم يأخذ بكل ما سطر القرآن الكريم، نظراً لقيود غير قرآنية أضعفت كثيراً من نصوصه إما للأهواء البشرية وإما لسوء فهم مفسري النصوص، على أنها جميعاً تخضع النصوص للتصور البشري، وإذا كان القرآن قدم للبشر، ولم يقدم البشر للقرآن ، يكون المفهوم القرآني الذي قدم للبشر له أصوله الإلهية، وأي فهم قاصر لهذه الدلالات تخرج النصوص كلية عن معناها. ذلك هو الحوار القرآني الإلهي المصدر المحمدي التطبيق.

وعندما نعود للأصل القرآني نجد أن الحوار الممكن لابد أن يكون أولا بين المسلمين بعضهم البعض، ومن خلال التحاور تبدأ مواجهة القوى الإسلامية التي تتبنى العنف، مع شرط أن يشمل الحوار كل نقاط الاختلاف، وكل زوايا الخلاف والخلافات، لتكون الأرضية المشتركة بين الجميع.

وذلك من أجل عدم التفريط بالقيم والمثل العليا الإسلامية وعدم السماح للآخرين باختراقات جديدة لتلك القيم الراسخة في نفوس الملايين ، ومن أجل صياغة ثقافة إسلامية حية تجمع المسلمين على ما هو مشترك بينهم في العقائد وتفصيلات الشريعة مع إبداء الاحترام والتقدير والإشادة بدور كل مذهب لما قدمه من آراء ووجهات نظر وحلول للمسائل الحياتية اليومية التي يبتلي بها المسلمون واغناء للفكر الإسلامي ، وباعتبار الاختلاف عامل قوة وتنوع للشريعة الإسلامية بوجود أكثر من رأي مطروح حيال أي

١٨- سورة العلق، الآيات: ١-٥.

١٩- سورة القلم، الآية: ١. اعتمدنا على ترتيب النزول حسب ما هو مكتوب في المصاحف المقروءة.

٢٠- سورة الحجر، الآية: ٩.

مسألة شرعية أو معضلة دينية ، يستطيع المسلم الأخذ بأحد الحلول التي تناسبه ضمن الضوابط الشرعية.

تتطلب إعادة النظر في بناء نسيج العلاقات الداخلية بين المسلمين وتقاربهم تصوراً إسلاميا جديداً للواقع المعاش يصنع ملامح لثقافة جديدة بديلة عن ما هو مطروح من ثقافة التطرف والتعصب والتأزم والاجتهاد الفردي القائم على عقلية التحريم والتكفير، ويدفع بالمسلمين للاهتمام بالمسائل الكبرى ومجابهة التحديات التاريخية التي تفرضها الظروف القائمة كمسألة الحوار بين الحضارات والتعايش السلمي بين الشعوب والأقليات والعلاقات الدولية بين الأمم والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والتحرر من الجهل والفقر ومواجهة طغيان الغزو الثقافي والتعامل بإيجابية مع التطورات الهائلة في عالم اليوم، كثورات الاتصالات والمعلومات ومفاهيم العولمة وإفرازات تجارة السوق الحرة ومسائل الديمقراطية وشؤون الحكم وتعزيز وبناء مؤسسات المجتمع الأهلي وتعميق وتأصيل ثقافة حقوق الإنسان والحريات الأساسية.

من هنا نرى ضرورة السعي نحو الحوار والتقريب بين أبناء المسلمين، لأنه الخطوة الأولى في التمسك بالأمل[٢١] وكل ذلك من حوار إسلامي أولا وقبل كل شيء، فالحوار هو الذي يقود للتآلف، ثم التقارب ثم الاعتصام كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢٢] فقد أمر الأمة جميعا بالاعتصام بحبل الله، ولم يوجه الأمر بالاعتصام بحبل الله إلى الأفراد وإن كان واجبا على كل فرد على حده ، قال ابن عاشور رحمه الله: "والاعتصام افتعال من عصم، وهو طلب ما يعصم أي يمنع، والحبل: ما يشد به للارتقاء، أو التدلي، أو للنجاة من غرق أو نحوه، والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفاتهم على دين الله ووصاياه وعهوده بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم منقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى الله قرينة هذا التمثيل، وقوله: {جميعا}: حال وهو الذي رجح إرادة التمثيل، إذ ليس المقصود الأمر باعتصام كل مسلم في حال انفراده اعتصاما بهذا الدين، بل المقصود الأمر باعتصام الأمة كلها"[٢٣].

٢١- د. علي أبو الخير، **الرسول المصطفى** ... ثورة الكلمة المقدسة (القاهرة: مركز الفارابي للدراسات، ٢٠٠٧م) ص ٧٧.

٢٢- سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

٢٣- محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير** (الدار التونسية للنشر، ٢٠٠٨م) ج ٣ ، ص١٧٣.

هذا هو الحوار كما مثّله القرآن، فماذا عن السيرة النبوية المطهرة، هو ما نكتب عنه في المحور الثاني.

المحور الثاني:

الحوار النبوي مع غير المسلمين:

حفلت نصوص القرآن ومواقف السيرة النبوية بما يدلُّ على أن الإسلام يُؤْثِرُ دائما السلام[٢٤]، ومن أدلَّة ذلك أنَّ القرآن الكريم أورد كلمة السلم بمشتقاتها مائة وأربعين مرَّة، في حين ذُكِرَت كلمة الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط[٢٥]، والفرق بين العددين هو الفرق بين نظرة الإسلام إلى كلا الأمرين، ومن ثَمَّ في ميل رسول الله إلى كلٍّ منهما؛ ففي كل أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبحث عن الطرق السلمية والهادئة للتعامل مع المخالفين له عبر الحوار معهم، ويحرص على تجنُّب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وتؤكِّد هذه النظرة العديد من الآيات التي أمرت بالسَّلْم مع غير المسلمين إن أبدى هؤلاء الاستعداد والميل للصلح والسلام؛ فيقول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٢٦]، وهذه الآية الكريمة من كتاب الله تبرهن بشكل قاطع على حُبِّ المسلمين وإيثارهم للسلم متى مال الأعداء إليه، ما لم يكن من وراء هذا الأمر ضياع حقوقٍ للمسلمين أو سلب لإرادتهم، لذلك يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامعة الأزهر الراحل : "إن السلم هو الحالة الأصلية التي تهيِّئ للتعاون والتعارف وإشاعة الخير بين الناس عامَّة، وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم، فهم والمسلمون في نظر الإسلام إخوان في الإنسانية"[٢٧]، ولهذا كله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتبر السلام من الأمور التي على المسلم أن يحرص عليها ويسأل الله أن يرزقه إياها.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبذل كل غالٍ ونفيس في سبيل إنقاذ أهل مكة وإخراجهم من الظلمات إلى النور، رغم عنادهم وقسوتهم في التعامل معه ومع من أسلم من أصحابه، إلا أنه كان مصرًّا على دعوتهم إلى الإسلام الذي يُحَقِّق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة، ويتمثل ذلك في دعائه لهم بالهداية، وكذلك

٢٤- د. راغب السرجاني، **الرحمة في حياة الرسول** (دار راغب السرجاني للنشر، ٢٠٠٩م) ص ٦٧.

٢٥- المصدر السابق، ص ٨٣.

٢٦- سورة الأنفال، الآية: ٦١.

٢٧- الشيخ محمود شلتوت، **الإسلام عقيدة وشريعة** (القاهرة: دار الشروق للنشر، ٢٠٠٧م) ص٤٥٣.

اتسم بسمة التبشير؛ فحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال مبنية على التبشير والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، ولم يكن يخرج عن هذا الطبع على الرغم من قسوة المشركين عليه، فعن ربيعة بن عباد الديلي -وكان جاهليًّا ثم أسلم- قال: "رأيت رسول الله بَصْرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول: "أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلّا اللهُ؛ تُفْلِحُوا ...."[٢٨]، هو يريد إسلام القوم من خلال الاقتناع الذاتي العقلي وبالتأمل في الخلق والمخلوقات، في التدبر في السماء، وطلب من الإنسان أن يدخل حوارا مع نفسه من خلال التأمل والتعقل والفهم.

وهذا ما طبقه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الشريفة، كان يتلو القرآن الكريم للمؤمنين والمشركين على السواء، ليزداد المؤمنون إيمانا، ويعطي الفرصة لغير المؤمنين في التدبر، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم في حوارات متعددة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حوارات مع المشركين والمسلمين.

الحوار النبوي في مكة المكرمة

في مكة المكرمة بعد بدء البعثة النبوية، قام النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله، فدخل في حوار مع عشيرته الأقربين أولاً بعد أن أمره الله عز وجل ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[٢٩]، وطلب منهم الإيمان بالرسالة ، منهم الذي آمن مثل حمزة بن عبد المطلب ، ومنهم من ظل على شركه للنهاية مثل أبي لهب، ثم بدأ في نشر الدعوة إلى الملأ القرشي، من خلال الحوار الهادئ الموضوعي، ونقتصر هنا على نموذجين حواريين من النبي عليه الصلاة والسلام.

حوار الرسول مع عمه أبي طالب

كان أبو طالب عم النبي هو الذي رباه وحماه عندما انطلق بدعوته الإلهية، ودائما كانت قريش تحاول منع أبي طالب من حماية الرسول، ولما أكثرت قريش الكلام والنقد لأبي طالب، جاء الملأ القرشي له وطلبوا منه أن يوقف النبي عن النيل من آلهتهم الوثنية، قال ابن إسحاق : "حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث : أن قريشا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبق علي

٢٨- محمد بن سعد الزهري، **الطبقات الكبرى**، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠١م) ج١، ص١٧٣.

٢٩- سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا له لعمه فيه بداء (رأي جديد) أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته قال : ثم استعبر (بكى) رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال : أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا"(٣٠)

الرسول صلى الله عليه وسلم رد على عمه بمنطق الدعوة الإلهية في حوار نموذجي، أولا النبي عليه السلام حدد موقفه، وهو الاستمرار في الدعوة، حتى لو تخلى عنه عمه، وحتى لو وضعوا له الشمس في يمينه والقمر في يساره، وهنا جاء الحوار باستمرار وقوف أبي طالب معه.

حوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع زعيم قرشي

في نموذج حواري آخر، كان مع زعيم عظيم من زعماء الملأ القرشي، وهو عتبة بن ربيعة، يروي ابن هشام في **السيرة** أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة (المكانة والقوة والمنعة) في العشيرة ، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع ، فقال له عتبة ما قال حتى إذا فرغ قال له : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟، قال نعم، قال : فاسمع مني، قال : أفعل، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليه من سورة فصلت ، حتى انتهى إلى الآية موضع السجدة منها وهي الآية ٣٧ من السورة وهي الآية التي تقول : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(٣١)، سجد، ثم قال لعتبة: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذلك، فقام عتبة أصحابه فقال بعضهم : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه

٣٠- ابن هشام ، **السيرة النبوية** (القاهرة: دار الريان للنشر، ١٩٨٧م) ج١، ص٢١٦.

٣١- سورة فصلت، الآية:٣٧، والرسول صلى الله عليه وسلم قرأ لعتبة من أول السورة، التي تبدأ بـ " حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ...إلى الآية ٣٧ التي بها سجدة قرآنية.

غير الوجه الذي ذهب به، وطلب عتبة إليهم أن يدعوا الرسول صلى الله عليه وسلم وشأنه، فأبوا وقالوا له: سحرك يا أبا الوليد بلسانه[٣٢].

في هذا الحوار نجد عتبه بن ربيعة يعود مأخوذا بالقرآن، بل يطلب منهم ترك النبي وشأنه، ولا يمكن أن يقود الحوار النبوي مع عتبه إلا لموقف عتبه ، وقد نتخيل موقف عتبه لو خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم بمنطق دعائي غير قرآني، عندها سيعود عتبه بموقف أكثر من عدائي، بل إن النبي أقام عليه الحجة من خلال محاولة إقناعه بالقرآن والدعوة، الوليد دُهش وتعجب بالقرآن ولكنه لم يسلم، وكبراؤه هو الذي منعه، ثم قتله المسلمون يوم معركة بدر الكبرى.

ويروي التاريخ أنّ الوليد بن المغيرة، الّذي يصفه العرب بريحانتهم وحكيمهم سمع الآيات التالية من النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[٣٣]فلما سمع الوليد تلك الآيات ، قام حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لُمثمِر، وإنّ أَسْفَلَهُ لُمْغدِقٌ، وإنّه لَيَعلو وما يُعْلى عليه".ثم انصرف إلى منزله[٣٤]، وهي أعجزت الملأ القرشي، وهيأت العقول للإيمان بالدعوة، عبر سبل الإقناع، ولكن الوليد لم يسلم بسبب كبريائه، وحاول تشويه الدعوة والرسول الداعي، فقال عن الدعوة : إن هو إلا سحر يؤثر، فنزل فيه القرآن الكريم ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾[٣٥].

٣٢- المصدر السابق، ج١، ص١٥٩.

٣٣- سورة غافر، الآيتان:١ –٦.

٣٤- ابن كثير ، **البداية والنهاية** (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٩م) ج٥، ص ٢٦٦.

٣٥- سورة المدثر، الآيات: ١١-١٣.

حوار النبي عند فتح مكة

عندما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكّة، ترك أهلها المشركين وشأنهم، ولم يكونوا أهل كتاب، ولم يدلّ دليل على أنّه أجبرهم على الإسلام، ولم يقتلهم، بل عفا عنهم جميعاً في بادرة بشرية إنسانية، ونذكر في هذا المضمار رواية تبيّن مدى سماحة الإسلام المتمثّلة بشخص النبيّ صلَّى الله عليه وسلم :(لما كان فتح مكّة، قال رسول الله: عند مَن المفتاح، قالوا : عند أمّ شيبة ، فدعا شيبة فقال: اذهب إلى أُمّك فقل لها ترسل المفتاح، فقالت: قُل له: قتلتَ مقاتلنا وتريد أن تأخذ منّا مكرمتنا، ثم وضعت المفتاح في يد الغلام ، فأخذه النبي، وقال له: هذا تأويل رؤياي من قبل. ثمَّ قام النبي ففتحه وستره، فمِن يومئذ يُستر، ثمَّ دعا الغلام فبسط رداءه فجعل فيه المفتاح، وقال: ردّه إلى أُمّك. ودخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنّون أنّ السيف لا يُرفع عنهم، فأتى رسول الله البيت وأخذ بعضادَتَي الباب، ثمَّ قال: لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، ثمَّ قال : ما تظنّون وما أنتم قائلون ؟ فقال سُهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظنُّ خيراً أخٌ كريم وابن عمّ، قال: أقول لكم كما قال أخي يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٣٦]، هذا الحوار النبوي المطلق العفوي الرائع في صورته الإنسانية، لم تحدث من قبل الرسول عليه الصلاة والسلام، أداء للأمانة، وحوار، ثم عفو بعد الحوار.

الحوار النبوي في المدينة المنورة

بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة، وجد جماعة من اليهود، فدخل معهم في حوار مكتوب ضمن صحيفة المدينة، فقد جاء في الصحيفة "هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم...إنهم أمة واحدة من دون الناس .... وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.... وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر

٣٦- سورة يوسف، الآية: ٩٢.

واتقى...."[٣٧]، وتعتبر صحيفة المدينة أول وثيقة حقوقية إنسانية في تاريخ البشرية، ودخل النبي الكريم من خلال القرآن الكريم في حوارات مستمرة مع اليهود والنصارى في قمة الحوارات المنطقية، فقال تعالى في القرآن الكريم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣٨]، فتلك الكلمة السواء، جاء بها القرآن وطبقها النبي صلى الله عليه وسلم، ويطول الأمر لو عددنا المواقف النبوية الحوارية.

حوار النبي مع المنافقين

تعامل النّبي عليه الصّلاة والسّلام مع المنافقين في المدينة تعاملًا عبّر عن عقليّة فذّة تمتلك مهارات التّعامل مع شتى أجناس البشر، فقد تزعّم عبد الله بن أبي سلول سدّة النّفاق في المدينة، حيث وصلته أخبار يوماً عن تشاحن بين رجلٍ من الأنصار ورجلٍ من المهاجرين فتوعّد المهاجرين قائلًا: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، فبلغ ذلك مسامع النّبي والمسلمين فهمّوا أن يقتلوه، فنهاهم النّبي عن ذلك بقوله: "لا يتحدّث النّاس أن محمدًا يقتل أصحابه "[٣٩].

وفي غزوة تبوك وعندما بنى نفرٌ مسجد الضّرار الذي أرادوا به تفريق المؤمنين كان ردّ النّبي عليه الصّلاة والسلام حازمًا لخطورة الموقف حيث أمر بهدم المسجد على أساساته، كما اتّخذ النّبي الكريم أسلوب الوعظ والتّذكير مع المسلمين حينما بثّ المنافقون بينهم دعاوي الجاهليّة، فقال يومًا منكرًا ذلك: "دعوها فإنّها منتنة"[٤٠]، وذكّرهم بفضل الله عليهم وكيف صاروا بنعمة الله إخوانا، وصلى على زعيم المنافقين، ولم يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام أن نال أحدا منهم، وكان حواره لهم مقدمة لإخلاص كل المسلمين له ، وصل الأمر بهذا الإخلاص أن طلب ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول أن يقتل أباه ، ولكن النبي رفض ،

٣٧- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ٢، ص١٣٣. بتصرف.

٣٨- سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

٣٩- ابن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٨م) ط٢، ج٥، ص١٨٩.

٤٠- محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح**، تحقيق محب الدين الخطيب (القاهرة :المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ) ط١، ٤٩٠٥، مسلم بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٧٤هـ) ط١، ٢٥٨٤، وأبو عيسى محمد الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد بن محمد شاكر، (بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ) ٣٣١٥ .

وقال له : " نحسن صحبته "[٤١]

العدل النبوي

لا يتحقق الحوار العادل الإيجابي سوى تطبيق العدل، والعدل بعد التوحيد مباشرة، ولذلك نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصا على تعليم أصحابه قيمة العدل مبيِّنًا لهم عظيم أجره فقال عليه السلام : "إن المقسطينَ في الدنيا على منابر من لؤلؤٍ يومَ القيامة بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا"[٤٢]

والعدل من الأخلاق النبويّة والشمائل المحمديّة التي اتّصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، عدلٌ وسِعَ القريب والبعيد، والصديق والعدو، والمؤمن والكافر، عدلٌ يزن بالحقّ ويقيم القسط، عدل وصل إلى درجة أن يطلب من الآخرين أن يقتصّوا منه صلوات الله وسلامه عليه خشية أن يكون قد لحقهم حيفٌ أو أذى منه، وهو أبلغ ما يكون من صور العدل[٤٣] .

ومن المواقف النبوية التي تبين مدى حرصه صلى الله عليه وسلم على العدل، موقفه مع الصحابي سواد بن غزية رضي الله عنه في غزوة بدر، قال ابن إسحاق: "حدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه: كان النبي يسوي بين الصفوف في الصلاة، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: استوِ يا سواد ، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأقدني" اقتص لي من نفسك"، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه، وقال: استقِد، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير"[٤٤]. هنا حوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وأحد أتباعه من الصحابة، الصحابي يطلب العدل في الحوار، والعدل هو القصاص من النبي صلى الله عليه وسلم، والنبي صلى الله عليه وسلم في الحوار العادل لم يرفض، بل كشف عن نفسه للقصاص،

٤١- ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج٢، ص١١٨.

٤٢- الإمام أحمد بن حنبل، **المسند** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م) ج ٧، ص١١٧.

٤٣- راغب السرجاني، **الرحمة في حياة الرسول**، ص٧٩.

٤٤- ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (بيروت: دار الكتب العلمية ،١٩٩٥م) ج٣، ص١٨١.

ثم تبين أن الصحابي رضي الله عنه كان يريد أن يمس جلد النبي صلى الله عليه وسلم، في بادرة روحانية، ولكن في النهاية ظهر العدل وانكشف الحوار الإيجابي، وتلك هي الأسوة ، فمن المعلوم أن التربية بالقدوة من أهم وأمثل الطرق في ترسيخ المبادئ والقيم، وهي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فالقيم والأخلاق والقواعد التربوية في حاجةٍ دائمة إلى من يُطَبِّقهَا ويعمل بها، ولذا كان المنهجُ النبوي في إصلاحِ البشريَّةِ وهدايتها يعتمد على وجودِ القدوة التي تحوِّل تعاليم ومبادئ الإسلام إلى سلوكٍ عمليّ، وحقيقة واقعة أمام الناس جميعاً، ولذا كان صلى الله عليه و سلم إذا أمر بشيء عمل به أولا، وإذا نهى عن شيء كان أول المنتهين عن.

قال ابن حجر في كتابه **الإصابة** حين عرّف بالصحابي الجلندى ملك عمان: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام، قال الجلندى: "لقد دَلَّنِي على هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يهجر، أي لا يتلفظ بقبيح الكلام، وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي"[٤٥]، وهي شهادة بمنطق العقل ومنطق الفهم دون ضغط أو إجبار أو إكراه، وتؤكد للمسلم وغير المسلم صورة النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة..

رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك

لا يستقيم الحديث عن الحوارات النبوية دون التطرق إلى رسائله إلى الملوك في عصره يدعوهم فيها إلى الدعوة الإسلامية، نلاحظ أنها رسائل مبشرة بالخير، ومختصرة وشاملة مانعة، نأخذ نموذجا وهو رسالته صلى الله عليه وسلم إلى هرقل إمبراطور الروم، الدولة المنتصرة مؤخرا على الفرس، تقول الرسالة : "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٤٦] نلاحظ في الرسالة أن النبي صلى الله عليه وسلم

٤٥- المصدر السابق، ج٣، ص٢١٤.

٤٦- سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

بدأ رسالته بتوقير هرقل باعتباره عظيم الروم أي رئيسهم ، ثم ثنّى بالسلام عليه ، ثم ثلّث بدعوته للإسلام، لم يهدده بالقوة ، بل قال له ما معناه إن لم تسلم فعليك إثم أتباعك ، وختم رسالته بآية قرآنية لجمع الأمر على الكلمة السواء، والكلمة السواء هي التي تضع حوارا متكافئا بين فريقين، ولذلك رحّب هرقل بالرسالة، كما رحب غيره برسائل النبي صلى الله عليه وسلم، ما عدا كسرى الذي مزّق الرسالة، فذهب ملكه بعد قليل.

نصارى نجران

جاء وفد من نصارى نجران لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم للتأكد من صدق دعوته، جاؤوا بالملابس الغالية الحريرية ليبهروا النبي والمسلمين، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين أبهروهم بالزهد، ثم حاورهم النبي صلى الله عليه وسلم وسمح لهم بالصلاة في المسجد النبوي، ثم لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طريقة أخيرة وفريدة؛ لإقامة الحجة على النصارى، فطلب منهم أن يقوموا بالمباهلة أي الملاعنة، ونزلت الآية الكريمة ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤٧]، فوافق أهل نجران ، فقد اعتقدوا أن النبي لن يلاعنهم، وعندما وجد الوفد النجراني أن النبي جاد في المباهلة بعد أن رأوا الزهراء والإمام علي والحسن والحسين رضي الله عنهم جاءوا للمباهلة، فخافوا، وتركوا الأمر، ورضوا بدفع الجزية دون جبر أو إكراه..

تلك بعض حوارات النبي جاءت لتؤكد الحوار الأمثل هو الطريق لنشر دعوة أو لإفشاء فكرة.

المحور الثالث:

موقف الإسلام من غير المسلمين:

بعد أن رأينا منطق القرآن في الحوار، وكيف طبق النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحوار في التعامل مع الأعداء والصحابة، نكتب عن موقف الإسلام إذن من غير المسلمين، وهي القضية التي نراها لازمة ليدخل المسلمون في حوار مع بعضهم البعض، ومع غير المسلمين أيضا، لأن الإسلام جاء بقيم إنسانية مشتركة، لا يمكن أن نجور عليها أو نتناساها، ونستند للقرآن والسنة الشريفة، ونكتب ليس من موقف الدفاع عن الإسلام بقدر ما هو توضيح للرؤية الإسلامية، فالغرب يهاجم الإسلام بأنه يضطهد الأقليات

٤٧- سورة آل عمران، الآية: ٦١.

مثلا، أو أنه يرفض حقوق الإنسان، وكلها من أدبيات غير محايدة، وغير منصفة.

رؤية الإسلام للأقليات

للإسلام نظرة مغايـرة لمفهوم الأقلّية والأكثرية، فهو لا ينظر لبني الإنسان داخل المجتمعات الإسلامية، أنَّ هناك أقلّية وأكثرية مِن ناحية عددية أو دينية أو عِرقية ... الخ ، بل المعيار الوحيد الذي يذكره ويطرحه ـ بشكل موسّع ـ للأقلّية والأكثرية، هو معيار الحقّ. فمَن يتبعه فهم الأقلية، ومَن يضادّه هم الأكثرية ، وليس لهذين المصطلحَين مِن ذِكر إلا في هذا المضمار: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ (٤٨) ، ﴿ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (٤٩) ، ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾(٥٠)، ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾(٥١) .

فالمسألة في نظر القرآن الكريم هي تحقّق العدالة للجميع، وإعطاؤهم كافّة حقوقهم بصورة متساوية، والفَرق الوحيد داخل المجتمع هو إتباع الحقّ وعدمه، وعليه فالإسلام لا يُفرِّق بين الناس مهما كانت فوارقهم اللُّغَوية والدينية، ومهما كانت عاداتهم وتقاليدهم، فكلّهم متساوون في الحقوق، وأمام القضاء، وأمام الدولة، ومع الناس الآخرين الذين يعيشون معهم في المجتمع، فالحاكمية لله وحده ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾(٥٢)، وذلك عبر ما نزل في شريعةٍ مقدّسة وخاتمة لكلّ شرائعه السابقة .

أمّا مصطلح الأقلّية الدينية المطروح في المجتمع الإسلامي اليوم، فهو مصطلح معاصر تماشياً مع ما طُرح مِن معاهدات ومواثيق دولية(٥٣) ، فدخلت في موسوعة الثقافة الإسلامية حديثاً، وإلا فالديانات الأخرى في المجتمع الإسلامي، هي ليست أقليّات حسب نظر الشرع الإسلامي، بل هم أهل ذمّة وعهْد، لهم أحكامهم وحقوقهم الكاملة طبقاً للشريعة المقدّسة، فلهم الحرّية الدينية في الالتزام بدياناتهم واعتقاداتهم

٤٨- سورة الأنعام : ١١٦

٤٩- سورة المائدة : ١٠٣

٥٠- سورة سبأ : ١٣

٥١- سورة المؤمنون : ٧٠

٥٢- سورة يوسف، الآية: ٤٠.

٥٣- علي أبو الخير، **الأكثرية والإجماع في تاريخ الأمة** (بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ٢٠١١م) ص٥٩.

ضمن شروط الذمّة. فلولا هذه الشروط؛ لتصدّع المجتمع بكامله وعمَّته الفوضى، واختلَّ النظام الاجتماعي. هذا من الناحية الدينية(٥٤).

أمَّا مِن ناحية اللغة أو اللون، فلا أقليّة في الإسلام مِن هذه الجهة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾(٥٥)، فكل المجتمعات الإسلامية ـ بشتّى لُغاتها وألوانها ـ لا فرق فيما بينها في الشريعة المقدّسة بكلّ الحقوق والواجبات .

كذلك لا فرق في الأعراق والأقوام والقبائل في قاموس الإسلام : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٥٦)فالتقوى واتّباع الحقّ هو معيار التكريم عنده عزّ وجلّ .

إذن فأصحاب الديانات الأخرى متساوون بالحقوق مع المسلمين ، ولا يجوز إيذاؤهم. وعليه فلا يُطلق في الشريعة عليهم : أقليّة ، بل أهل ذمّة، أو معاهدين، أو مستأمنين، لكنّ كلمة أقليّات دينية جاءت في الوقت الحاضر تماشياً مع المعاهدات والمواثيق الدولية .

إن الأصل في الإسلام هو السلام وليس القتال، على خلاف ما كانت عليه الدول آنذاك في حالة صِراع كصراع الغابات، فاختار الله الإسلام؛ رأفةً ورحمةً من لدنه تعالى وشريعةً سمحاء لهم، على يد الرسول المصطفى محمّد صلى الله عليه وسلم ، لأداء هذه المهمّة المقدّسة في نشر الرحمة والسلام للبشرية كافّة، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٥٧)، فلم يُعرف أنّه أعلن الحرب في بدايته المباركة وظلّ انتشاره إلا ما شرّعه دفاعاً.

وعليه فإنّ مواجهة الأخطار والذَود عن القِيَم السامية، يستدعي الدفاع ـ كالدفاع عن النفس والعِرض والمال والوطن، في حالة الاعتداء عليها من قِبل أعدائه المناوئين له، وفي سبيل الدفاع عن المستضعفين الرازحين تحت نِير الظلام وأعداء الإنسانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

٥٤- المصدر السابق، ص ٦١.

٥٥- سورة الروم، الآية: ٢٢.

٥٦- سورة الحجرات، الآية: ١٣.

٥٧- سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾[٥٨]، وهي حروب مشروعة عقلاً، وليس لها مثيل في العالم في حاضره وماضيه في شدّة مراعاتها للحقوق الإنسانية، وهي حروب كانت ممّا لا مناص منها عقلاً للدفاع عن الرسالة ومواجهة المعتدي والتصدّي له، أو لأجل الذود والدفاع عن النفس .. وغيرها من مسوّغات الحرب .

لذا فالقاعدة والأساس في الإسلام هو السلام ، والحرب ما هي إلا استثناء وعند الضرورات، ولكنّنا نلاحظ الحضارة الغربية منذ أن انبثقت وأمسكت بمقاليد الأمور، استعرت الأُمّة العالمية بحروب دامية لا مثيل لها في التاريخ ، وتجاوزت كلّ المبادئ والقِيَم الإنسانية ، كما في الحربين العالميتين الأُولى والثانية ، وما نتج عنهما من آثار سيّئة على شعوب العالم إلى اليوم، من الفقر والاستعمار والتشتّت والضغائن ما بين بني البشر .

وعلى هذا فالفتوحات الإسلامية تُعتبر قضاء على الظلم والطغيان الحاصل من المتسلّطين على الشعوب، وهي مع ذلك دعوة للمجتمعات في اعتناق الدين الإسلامي باختيارهم من دون إكراه بمبادئه السمحاء ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[٥٩]، وسبيله العقل والتفكّر بهذا الدين﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[٦٠].

وفي المقابل إذا وقف أحد بأساليب عدوانية أمام هذه الدعوة المسالمة، كأن يكون عذّب مَن آمن بها، أو خطّط لهدمها أو صدّ عن الدخول بها، فيقتضي الأمر هنا استثناءً إشهار السيف لإزالة هذه العقبة فقط ، فعلى سبيل المثال : قتال المسلمين للروم في موقعة مؤتة في عصر النبي عليه السلام ، كان ذلك عندما شَرَع الروم بقتل مَن أسلم واضطهادهم. إذن، يتبيّن أنّ الإسلام لم يأذن بالقتال إلا درءاً للعدوان، وتصدّياً للاضطهاد.

قضية حقوق الإنسان

هناك قضية أخرى، وهي قضية حقوق الإنسان، والتي تبنتها البشرية منذ عدة عقود، وتقوم الدول الكبرى باستخدامها سياسيا ضد الدول الصغرى، ولكن الإسلام تحدث عنها وتبناها مبكرا، ذلك إن

٥٨- سورة النساء، الآية: ٧٥.

٥٩- سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

٦٠- سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

قضية حقوق الإنسان من أهم القضايا المثارة في العصر الحديث، وقد كثر عنها الكلام وتعددت المفاهيم، وتنوعت الرؤى، ثم صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من منظمة الأمم المتحدة لتضع الشعوب أمام مسؤولياتها لضمان حقوق الحرية والعمل والسفر[٦١]، وغيرها من الحقوق التي نص عليها الإعلان، ورغم كل ذلك مازالت تلك الحقوق منتهكة في دول العالم، والدول الكبرى على وجه الخصوص تنتهك حقوق الإنسان في العالم بأسره، ثم تستخدم تلك الحقوق للضغط على الشعوب الأخرى من أجل تنفيذ سياساتها، ولذا ظلت حقوق الإنسان حبرا على ورق.

إن الدول الكبرى تفتخر بأنها أرست حقوق الإنسان في أرضها، وتعتقد أن حقوق الإنسان هي في القول والتنقل والمرأة وغيرها من الحقوق، وذلك داخل حدودها، ولكن بنظرة متأملة يجد الإنسان أن كثيرا من حقوق الإنسان داخل تلك الدول منتهكة، وعلى سبيل المثال مازال يوجد تمييز ضد السود في المجتمعات البيضاء، كما أن العمال في تلك الدول مازالوا يعانون من سوء العلاقة بينهم وبين أصحاب الشركات الكبرى والمتعددة، وهي شركات رأسمالية متوحشة ، تتدخل في السياسات العليا، وتعمل على أن تكون مصالحها فوق كل اعتبار، بحيث أصبح الأجير مثل العبد تماما ، مثله مثل خدم المنازل، سواء كان هذا العبد مسخرا لشخص طبيعي ، أو شخص اعتباري مثل تلك الشركات .

موقف الإسلام من حقوق الإنسان

إن الأديان جميعا جاءت بالحرية للإنسان من استعباد الآخرين له، الحكام وغير الحكام، وقد سبقت الأديان كل المفاهيم البشرية لتلك الحقوق، ولأن الإسلام هو خاتم الرسالات فلابد أنه أعطى الإنسان حقوقه كاملة غير منقوصة، وما جاء في القرآن الكريم وسيرة الرسول الأكرم سبق الإعلان العالمي بألف وأربعمائة عام، ولأن الإسلام إلهي المصدر فقد تميز ما جاء فيه عن غيره، بالروح الإيمانية التي تمنع الخروج على التعاليم الإلهية، لأن القرآن شمل العقاب الدنيوي والأخروي، وجعل الأكرم عند الله هو الأتقى بصرف النظر على اللون أو الأصل أو الجنس، وتميز القرآن بأنه منع اكتناز المال لمنع الاستغلال والاحتكار، كما أنه فتح الأبواب لحرية العبيد وجعل معاملة الرقيق هي نفس معاملة السيد.

إن الإنسان مخلوق مكرم من الله العلي القدير، كما أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة وأكملها،

٦١- صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، عام، ١٩٤٨م.

ومنحه الحرية في الاختيار بين الخير والشر، بين الحق والزيف، وذلك دون إكراه أو جبر أو تعذيب أو قتل، فكانت تلك أول الحقوق الممنوحة للإنسان ، لأنه مخلوق على الفطرة السوية السمحاء، فكان التكريم الإلهي هو الأصل للإنسان، وبناء على هذا التكريم منع الله أي انتهاك له في البدن أو الروح، ولذا ومنذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة، ما انفكت حقوق الإنسان هي المحور الأبرز في الفلسفات الوضعية والتشريعات الإلهية.

لقد بُعث الأنبياء والرسل بشرائع السماء من أجل رفعة الإنسان والارتقاء به إلى الكمال التي حددها الله سبحانه له ، وهو الحق مصدر الحقوق كافة ، إلا أن تلك الحقوق قد تجاذبتها الأهواء والمطامع التي ارتبطت بالنزعة البشرية الغريزية إلى السيطرة ، فأخذ القوى يستهلك ويأكل الضعيف بحكم القوة التي امتلكها أو يحاول امتلاكها على حساب الآخرين.

ورغم التطور البشري والحضاري الذي ساد المجتمعات لم يتخلص الإنسان من هموم البحث عن الطعام أو العمل أو السلطة وهو ما أدى إلى استمرار الأقوياء يستخدمون الأرقاء كعبيد مسخرين لخدمتهم سواء في المنازل كخدم أو عمال في المزارع والمصانع يأخذون أجورا متدنية لا تغنيهم، ولكنهم تزيد في غنى الأغنياء المترفين، أو هو الرق الحديث الذي يمكن تسميته بالرق المقنع لأنه يتخفى وراء الشعارات المعاصرة، ولكنه مازال فيه بقايا الرق القديم، والذي صوره موجودة على مستوى الأفراد وعلى مستوى الجماعات، كما نشاهده في استغلال الأطفال والنساء ، وكما نشاهده في استغلال بعض الجماعات البشرية مثل ما حدث للسود الأفارقة الذين لا ذنب لهم سوى لون البشرة ، وهم مازال يمارس ضدهم أنواع من التمييز العنصري.

ولا يمكن الحديث عن حقوق الإنسان في القرآن الكريم دون التطرق للعدل، لأن العدل هو الأصل الذي يصون كل الحريات والحقوق والواجبات، وبدونه تصبح الحقوق مهدرة، ولأهمية العدل في الإسلام وردت مادة (العدل) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، ووردت كلمة (القسط) المرادفة لها (٢٥) مرة، وللحث على العدل قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٦٢] وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ

٦١- سورة النحل، الآية: ٩٠.

وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾[٦٣] والإقساط هو العدل، والمقسطون هم العادلون، وقد أمر الله بالعدل في الأحكام كما أمر به في الأقوال، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٦٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٦٥].

لقد كانت البشرية قبل بزوغ فجر الإسلام تعرف العدوان أكثر مما تعرف الحق، وتحترم القوة أكثر مما تحترم الحرمة، والإنسانية في ظلمات بعضها فوق بعض، يفتك القوي بالضعيف، ويأكل القادر حقوق العاجز، ومع ذلك عرف العرب في جاهليتهم حلف الفضول، أن ينصروا المظلوم ويقفوا معه حتى يأخذ حقه من الظالم، وذلك الحلف الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: "لو دعيت إليه في الإسلام لأجبته"[٦٦].

وجاءت رسالة الإسلام، رسالة العدل والمساواة، حيث أشرقت الأرض بنور ربها وارتفعت كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا"[٦٧].

ذلك هو النهج القرآني الأصيل في حقوق الإنسان، وهو منهج نحن مأمورون بإتباعه، ولو فرطنا فيه نكون فرطنا في الدين والكرامة الإنسانية كلها، وهذا هو المنطق القرآني الحواري في التعامل بين المسلمين بعضه البعض، وهي نظرة الإسلام لغير المسلمين، من أهل الكتاب ومن غير أهل الكتاب، حقوق مصونة وروح معصومة، وحياة كريمة لإنسان كرمه الله.

---

٦٢ - سورة الحجرات، الآية: ٩.

٦٣ - سورة النساء، الآية: ٥٨.

٦٥- سورة الانعام، الآية: ١٥٢.

٦٦- أبو بكر البزار، **البحر الزخار** (بيروت: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٩م) ج١، ص١٨٥.

٦٧- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٦، ص١٦٩.

موقف الإسلام من الغير

الإسلام كما قلنا يعتمد الحوار بين المسلمين بعضهم البعض، وبين المسلمين وغير المسلمين، ثم أعطى الحقوق لكل البشر، ومن هنا نرى أن الإسلام يقف من غير المسلمين في حال السلم موقف الأمان، بل إنه لم ينه عن البر بهم ماداموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما ينهى عن البر بالذين قاتلوا المسلمين في دينهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم، فقال جل شأنه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٦٨] .

ونهى القرآن الكريم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٦٩].

وأمر الإسلام بالوفاء بالعهد حتى مع المشركين، قال تعالى﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[٧٠].

ولو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل ويبلغه مأمنه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[٧١].

ومن رعاية الإسلام لحقوق غير المسلمين رعايته لمعابدهم وكنائسهم، ومن محافظته عليها ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما حان وقت الصلاة وهو في كنيسة القيامة، فطلب البطريرك من عمر أن يصلي بها، وهمّ أن يفعل ثم اعتذر ووضح أنه يخشى أن يصلي بالكنيسة فيأتي المسلمون بعد ذلك

٦٨- سورة الممتحنة، الآيتان: ٨ – ٩.

٦٩- سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

٧٠- سورة التوبة، الآية: ٤.

٧١- سورة التوبة، الآية: ٦.

ويأخذونها من النصارى على زعم أنها مسجد لهم، ويقولون: هنا صلى عمر [٧٢].

ولم تتوقف معاملة المسلمين لغير المسلمين عند حد المحافظة على أموالهم وحقوقهم، بل حرص الإسلام عبر عصوره على القيام بما يحتاجه أهل الكتاب وما يحتاج إليه الفقراء منهم.

إن مثل هذه المعاملة من المسلمين لغير المسلمين تظهر للعالم أجمع على أن الإسلام ربى أتباعه على التسامح، وعلى رعاية حقوق الناس، وعلى الرحمة بجميع البشر مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم.

وقد حفظت أجيال المسلمين قيمة هذه الرعاية الإسلامية لحقوق غير المسلمين، لأنهم ما طبقوها إلا استجابة لتعاليم القرآن الكريم، وتوجيهات الرسول، وقد طبقها في حياته كما كتبنا في تلك الدراسة، فوعاها المسلمون جيلاً فجيلاً، وطبقها الخلف عن السلف، والأبناء عن الآباء، فها هو ذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حدث مجاهد قال: "كنت عند عبد الله بن عمر، وغلام لم يسلخ شاة، فقال: يا عمر إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي، وقال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول هذا؟ فقال إن رسول الله لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورث"[٧٣].

لم يفرق النبي بين الجار المسلم والجار اليهودي أو المشرك، فالجار له حقوقه، وهي مصانه.

وورد في التاريخ الإسلامي الكثير من المواقف المشرفة عبر التاريخ بعد فترة النبوة والخلافة الراشدة، التي تؤكد النظرة الإسلامية الحقيقية لغير المسلمين في البلاد الإسلامية.

ولا نكتب عن كل المواقف التي تعامل بها المسلمون مع غير المسلمين، ولكن فقط نكتب عن مجمل فكر التسامح والتعامل الإسلامي مع غير المسلم.

ولقد وصل الأمر أن الفقهاء قالوا بأنه واجب المجتمع الإسلامي أن تُؤَمَّن كل ضوابط الحماية

٧٢- ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٧، ص١٢٩، وورد أيضا في باقي كتب التاريخ مثل: **الطبقات الكبرى وتاريخ الطبري** وغيرها من كتب التاريخ الإسلامي.

٧٣- ورد الحديث في صحيحي **البخاري ومسلم**، واعتمدنا على ما جاء بصحيح مسلم باب حقوق الجار، ناصر الدين الألباني، **تخريج احاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام** (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ) ط١، ص١٠١، والبخاري في **الأدب المفرد**، ص٩٥ (دار الصديق، ١٤١٤هـ) ط١، و عبد الله بن أحمد بن عيدي، **الكامل في ضعفاء الرجال**، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ) ط١، ج ٦، ص ٢٩٢.

لكل من رضي العيش بداخله من غير المسلمين، وأن الجزية لابد أن تكون مقابل الحماية لغير المسلم، وإن تراجعت الحماية فلا جزية، يقول ابن حزم الأندلسي: "إن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكِرَاع والسلاح ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة" (٧٤)، وهو موقف رائع حدث في أثناء قوة الدولة الإسلامية وحضارتها، ولم يكن من موقف ضعف.

ومن أروع الأمثلة على ذلك في التاريخ الإسلامي، هو موقف القائد الصحابي أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من أهل حمص وغيرهم عندما كان يفتح بلاد الشام، فعندما هُزم المسلمون في موقعة، ولم توجد حماية لأهل البلاد التي كانت تقع تحت الاحتلال الروماني للشام، فقد ردّ أبو عبيدة عليهم أموالهم التي دفعوها مقابل حمايتهم من الاعتداء الخارجي بسبب عجزهم عن ذلك، فدُهش هؤلاء القوم، ثم قال أهل حمص لأبي عبيدة : "ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا إلينا بل غصبونا" (٧٥).

ولقد ورد غيرها من الأحداث التي تحمي غير المسلمين، لأنهم يرون ضرورة حماية كل المواطنين من السوء أيا كان مصدره، وأيا كان فاعله، والصور كثيرة متعددة، فراعينا الاختصار على قدر الدراسة البحثية.

تلك هي رؤية الإسلام لغير المسلمين، لا جبر ولا إكراه، ولا تكبر، ولا تحيز، وهو الموقف الواجب أن يتبناه المسلمون بين بعضهم البعض من جهة، وبينهم وبين غير المسلمين من جهة أخرى، ولو لم يحدث نكون كمن يبتعد عن رؤية القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة:

التعايش الحضاري وحوار مع النفس ثم حوار مع الغير

بعد أن كتبنا عن موقف الإسلام مع الغير، وأن الحوار في القرآن يشمل كل مناحي الحياة الإنسانية بين المسلمين بعضهم البعض، وبينهم وبين غير المسلمين، نجد لزاما على أبناء الأمة أن يتعايشوا جميعا، فالتعايش يضمن لجميع الأطراف تكافؤ الفرص وعدم ممارسة التمييز والتهميش ضد الآخر بسبب عقدي

٧٤- ابن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل** (بيروت: مكتبة السلام العالمي، ٢٠٠٨م) ج٣، ص١١٤.

٧٥- أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: دار الهلال، ١٩٨٨م) ص١٤٣.

أو فكري أو سياسي، فالتعايش لا يكون للتمييز والإقصاء، وإنما يستند في واقعه على المساواة وتكافؤ الفرص بصرف النظر عن الاختلافات الأيدلوجية والفكرية والسياسية، فمفهوم التعايش بين المختلفين والمغايرين لا يعني بأية حال من الأحوال التنازل عن الثوابت والقيم وإنما هو أن نعتمد في علاقاتنا مع الآخرين، وأن يعتمد الآخرون في علاقاتهم معنا على أسس العدالة وحق الآخر في المعتقد والرأي والتعبير والمساواة وتكافؤ الفرص، لأن التعايش لا يضر بحالة الاعتزاز العميق بذاتنا العقدية والفكرية، ولا يمس مقدساتنا، وإنما يجعلنا نتمثل لهذه القيم الذكر في العلاقة مع الآخرين، مع العلم أن التعايش لا يمكن أن يتحقق بطرف واحد فقط، وإنما أيضا مطلوب من الآخرين أن تكون علاقتهم معنا مستندة على ذات القيم ، فالتعايش مشروع تشترك جميع الإرادات في خلق حقائقه ووقائعه في الفضاء الاجتماعي والثقافي والسياسي.

من ثم يجب خلق الأطر والمؤسسات الحوارية التي تجمع كل تعبيرات وقوى المجتمع ومساهمة كل التعبيرات في إزالة كل الاحتقانات وعناصر التوتر التي توجد بين المسلمين، وإرساء تقاليد حوارية وأخلاقية تضمن للجميع حق الاختلاف وحق التعبير عن الرأي والموقف مع الالتزام بكل الضوابط الأخلاقية ، التي لا تفضي إلا إلى المزيد من تنقية الواقع الاجتماعي من كل عناصر الاحتقان والتوتر.

كما توجد قيمة التسامح، وهي ضرورية في تعامل المسلمين فيما بينهم، فالتسامح كقيمة لابد يُمارس في نطاق القانون والعدالة، فالقيمة الأصلية للتسامح والعفو والتعايش هي قيمة العدالة، فهي أم هذه القيم ، وفي نطاقها تتحرك هذه المفردات ، ومن المهم الإشارة إلى أن التهذيب النفسي وتغيير ما بالنفس، هو القاعدة الأساسية التي تخلق إنسانا يلتزم بالقانون أو يخضع لمتطلبات العدالة ، فالقانون لا يمكن أن يطبق في ظل فرد ليس مهذبا لنفسه ومغيرا لذاته كما أن العدالة لن تترجم في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، إلا إذا مارس الإنسان تغييرا في ذاته باتجاه تجسيد هذه القيم.

وعلى مستوى الاجتهاد الفكري والثقافي والإنساني ، المسلمون بحاجة إلى بلورة نظام التفاضل بين القيم ، حتى لا نتعامل مع هذه القيم بوصفها قيما مجردة وبعيدة عن ظروف الزمان والمكان.

إننا لو دققنا في الشرائع الإسلامية وآدابها فهي تعتبر الفرد جزءاً لا ينفصم من كيان الأمة، وعضواً موصولاً بجسمها لا ينفك عنها، فهو طوعاً أو كرهاً يأخذ نصيبه مما يتوزّع على الجسم كله من غذاء ونحو ذلك، وجميعه يقوم على الحوار الهادئ الموضوعي، دون تجبر من القوي على الضعيف والغني على الفقير،

فالجميع إنسان ، والجميع مسلم ، ومن الصعب الحوار مع الغير دون الحوار مع النفس ومع القريب.

وفي الختام لابد من الاعتراف بمنظومة الاختلاف، بناء على قاعدة: "نتعاون في ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا فيه"، على أن الاختلاف هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضادّ، فلا يضرّ بإسلام الفرد ولا بوحدة المسلمين.

ولابد أنْ تقوم المرجعيات في كل الدول الإسلامية بالعمل داخل كُلّ الأقطار الإسلامية وفي أماكن الأقليات الإسلامية بعقد دورات لخطباء المساجد ؛ لأنهم أكثر الناس تأثيراً في جموع المسلمين ؛ نظراً للمواجهة المباشرة بَيْن الخطيب والمصلين ، على أنْ تتكفل كُلّ دولة بالبرنامج الذي تحدده المرجعية الخاصة بها ، والتي عليها أنْ توحد المناهج الدينية القائمة على شَرْح كُلّ الأفكار الدينية في ظل وجود هامش الاختلاف والتعدد .

إنّ مِن شأن هذا التقريب بَيْن وجهات نظر الطوائف الإسلامية إشاعة المنهج الموحد لفهم الدين ، طالما أنّ الجميع يستقون مِن نبع واحد هو القرآن ، وكله يقوم على أسس حوارية .

الكمال لله وحده ، والعصمة لا تكون إلا لنبي.

والله من وراء القصد ، وهو يهدي السبيل.